الدين والاغتراب الوجودي
في علم الكلام الجديد

Religion and Existential Alienation in New Theology

نور علي خسته
Nour Ali Khasta
مدرس مساعد / مكتب مساعد رئيس الجامعة للشؤون العلمية
شعبة الارشاد النفسي والتوجيه التربوي / الجامعة العراقية
Assistant Professor
Office of the Assistant President for Academic Affairs
Department of Psychological Counseling and Educational Guidance / University of Iraq
nour.a.khasta@aliraqia. edu iq

ملخص البحث

يتناول هذا البحث بعمق مفهوم الاغتراب الوجودي وتأثيره الجذري على الفرد والمجتمع، بالإضافة إلى الدور الحيوي للدين في معالجة هذه الظاهرة المعقدة. يُعرَّف الاغتراب الوجودي كحالة نفسية وجودية تؤثر على الإحساس بالانتماء والمعنى في الحياة، حيث تتولد مشاعر العزلة والانفصال عن الذات والعالم. وقد تم تصنيف أنواعه المختلفة، بما في ذلك الاغتراب الفردي والاجتماعي، مع تحليل تأثيراته السلبية على الصحة النفسية والتماسك الاجتماعي، تمت مناقشة كيفية تأثير الدين على مواجهة الاغتراب، حيث أظهرت النتائج أن المعتقدات الدينية تساهم في تعزيز شعور الأفراد بالانتماء والاتصال بالعالم، مما يخفف من وطأة الاغتراب الوجودي. كما تم تسليط الضوء على كيف أن الدين يمكن أن يوفر إطارًا موجهًا نحو الأهداف الكبرى التي تسهم في بناء المعنى والهوية، في الفصل الثاني، تم تقديم علم الكلام الجديد كإطار فكري متجدد يتناول قضايا الاغتراب، مشيراً إلى أهمية إعادة قراءة النصوص الدينية وفهمها في سياقات معاصرة، ويتجاوز هذا العلم حدود فهم الله وصفاته ليشمل أيضاً دراسة الإنسان، حيث يُعتبر تطور العلوم والمعارف عنصراً أساسياً في تعزيز وعي الفرد بذاته وبطبيعة وجوده. خلص البحث إلى أن الدين يلعب دوراً محورياً في تقديم معنى شامل للحياة، ويحتاج الفكر الديني إلى التجديد لمواجهة التحديات المعاصرة، مثل العولمة والتغيرات الاجتماعية السريعة، كما أظهر أن الفهم العميق للإنسان وطبيعته المركبة يُعتبر مفتاحاً لفهم الدين وعلاقته بالوجود، مما يساهم في إعادة بناء الروابط الإنسانية والعيش بكرامة.

كلمات مفتاحية: الدين، الاغتراب الوجودي، علم الكلام الجديد، التجديد الديني.

Abstract

This research delves deeply into the concept of existential alienation and its profound impact on individuals and society, as well as the vital role of religion in addressing this complex phenomenon. Existential alienation is defined as an existential psychological state that affects the sense of belonging and meaning in life, generating feelings of isolation and disconnection from oneself and the world. Various types of alienation are classified, including individual and social alienation, with an analysis of their negative effects on mental health and social cohesion، In the first chapter, the discussion focuses on how religion influences the confrontation of alienation, revealing that religious beliefs contribute to enhancing individuals' feelings of belonging and connection to the world, thereby alleviating the burden of existential alienation. The research also highlights how religion can provide a framework oriented towards higher goals that contribute to the construction of meaning and identity.

In the second chapter, new theology is presented as a renewed intellectual framework addressing alienation issues, emphasizing the importance of re-reading religious texts and understanding them in contemporary contexts. This theological approach transcends the boundaries of understanding God and His attributes to encompass the study of humanity, where the evolution of sciences and knowledge is considered a fundamental element in enhancing individual awareness of oneself and the nature of existence.

The research concludes that religion plays a crucial role in providing a comprehensive meaning to life and that religious thought needs renewal to meet contemporary challenges, such as globalization and rapid social changes. Furthermore, it demonstrates that a deep understanding of humanity and its complex nature is key to comprehending religion and its relationship to

existence, contributing to the reconstruction of human connections and the pursuit of a life of dignity.

المقدمة

يُعَدُّ علم الكلام، المعروف أيضاً بعلم أصول الدين أو التوحيد أو العقائد، من أبرز العلوم التي تعكس التفاعل الفكري والديني في المجتمعات الإسلامية، ويُشير الدكتور عبد الجبار الرّفاعي إلى أن تسمية هذا العلم «علم الكلام» تنبع من أهمية مسألة الكلام الإلهي التي تهيمن على مجمل قضاياه (الدكتور عبد الجبار الرفاعي، مقدمة في علم الكلام الجديد، ص٣٤، مركز دراسات فلسفة الدين بغداد، دار النشر الرافدين.)، وقد ارتبطت نشأة هذا العلم بنظرية الإمامة، مما يعكس السياق السياسي الذي ساهم في تكوينه، حيث كانت مسألة الخلاف حول الإمامة محوراً أساسياً في التفكير العقائدي بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله)(المصدر نفسه، ص٢٧.)، ومع امتداد الإسلام إلى مناطق متنوعة من الشام والعراق وبلاد فارس وآسيا الوسطى، واجه المسلمون آراء وأفكار جديدة من الثقافات المختلفة، مما أدى إلى تداخل الجدليات اللاهوتية اليهودية والمسيحية في الفكر الكلامي الإسلامي، خاصة في موضوعات مثل الصفات والكلام الإلهي والقدر. رغم أن المتكلمين قد رفضوا الفلسفة، إلا أنهم اعتمدوا المنطق الأرسطي كأداة أساسية في بحوثهم.

عاشت الأجواء الفكرية في العالم الإسلامي فترة من الانفتاح على الثقافات المختلفة، مما ساعد في ظهور تعددية في المناهج الفكرية. ولكن مع مرور الوقت، وبالتحديد بعد عصر المتوكل العباسي، بدأ الانغلاق على الفكر الكلامي، وتحول الاجتهاد إلى تقليد مؤسسي للفرق الكلامية، مما أدى إلى حالة من الجمود الفكري، وفي نهاية القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي)، ظهرت مؤشرات على انبعاث الفكر الكلامي من جديد، وسط أسئلة جديدة تعكس حاجة المجتمعات الإسلامية إلى إعادة النظر في قضاياها العقائدية. ومع ذلك، لا تزال مظاهر الانغلاق مستمرة، مما أسفر عن اغترابات متنوعة، تشمل الاغتراب الأرسطي والماورائي واللاهوتي والاجتماعي، والتي تتطلب دراسة معمقة لفهم أبعادها وتأثيراتها على الفكر الإسلامي المعاصر، يمثل الانغلاق الفكري في علم الكلام أحد العوامل التي أدت إلى ظهور اغترابات متعددة، منها الاغتراب الأرسطي والماورائي واللاهوتي والاجتماعي. يعكس الاغتراب الأرسطي اعتماد هذا العلم على المنطق الأرسطي كأداة أساسية، رغم تراجع دوره في الفلسفة الحديثة، مما أسهم في جمود التفكير وابتعاده عن الواقع، أما الاغتراب الماورائي، فيشير إلى تنوع تفسيرات صورة الله، حيث يُحجم المتكلمون في كل فرقة عن رؤية تجلّيات الله المتعددة، محصورين في أفكارهم

المسبقة، وبالإضافة إلى ذلك، أدى هذا الانغلاق إلى غياب موضوع الإنسان في نقاشات علم الكلام، إذ انصب التركيز على الصفات الإلهية دون التطرق لجوهر الإنسان وحقوقه، إن هذه الانغلاقات مجتمعة تُشكل صورة سلبية للإنسان في المجتمع، وتجسد تصوراً لله يرتبط بالقوة والعقاب، مما يستدعي ضرورة إعادة التفكير في الأسس الفكرية لتجاوز هذه الاغترابات وتحقيق توازن جديد في الخطاب الكلامي.

المطلب الأول: مفهوم الاغتراب الوجودي

يعد الاغتراب الوجودي من المفاهيم العميقة التي تناولتها الفلسفة الحديثة، حيث يرتبط بشعور الفرد بالانفصال عن ذاته، والآخرين، والعالم من حوله، يعكس هذا المفهوم تجارب إنسانية معقدة تتعلق بالبحث عن المعنى، والهوية، والانتماء في عالم سريع التغير، يُظهر الاغتراب الوجودي كيف يمكن للأفراد أن يشعروا بالقلق والضياع في مواجهة التحديات الوجودية، مثل الموت، والحرية، والاختيار، مما يؤدي إلى استكشافاتهم الفكرية والعاطفية، من خلال هذا المطلب، سنتناول أبعاد الاغتراب الوجودي وتأثيره على حياة الأفراد، مستعرضين أهم الآراء الفلسفية والنفسية التي تفسر هذا الظاهرة.

ويعتبر الاغتراب الوجودي والظمأ الأنطولوجي مفهومان مترابطان يعكسان معاناة الإنسان في عصرنا الحالي، بينما يمثل الاغتراب شعور الفرد بالانفصال عن ذاته والعالم، يعبر الظمأ الأنطولوجي عن الحنين إلى ما يثري الوجود، وخصوصاً المقدس ويقول الدكتور عبد الجبار الرفاعي معللاً هذه التسمية: «أعني بالظمأ الأنطولوجي الظمأ للمقدس، أو الحنين للوجود المطلق، إنه ظمأ الكينونة البشرية، بوصف وجود الإنسان وجوداً محتاجاً على الدوام إلى ما يثريه. الإنسان كائنٌ بذاته يرتوي به ظمؤه، ويثري به وجوده، ويسقي عطشه عطشاً إلى وجود غني مكثف.»(عبد الجبار الرفاعي، الدين والظمأ الأنطولوجي، ص٢١، مؤسسة هنداوي). يعكس هذا الظمأ حاجة الكينونة البشرية إلى معنى أعمق، مما يفسر تزايد الظواهر السلبية مثل الإرهاب، حتى بين الأفراد الذين يمتلكون كل ما هو مادي، إذ يجد هؤلاء أنفسهم عالقين في رتابة الحياة، مما يدفعهم للبحث عن مغامرات وحشية كتعويض عن فراغهم الوجودي، من خلال هذا المطلب، سنستكشف كيف تتداخل هذه المفاهيم لتعبر عن أزمات الهوية والوجود في العصر الحديث.

مفهوم الاغتراب الوجودي وأهميته في الفكر الديني:

تعتبر مسألة الاغتراب الوجودي محوراً أساسياً في الفكر الديني، حيث تعكس تجربة الإنسان

Journal of Islamic Sciences
Vol.4 | Issue 41
ISSN: 2225-9732

December 2025

مجلة العلوم الإسلامية
المجلد 4 | العدد 41
www.isscj.edu.iq

في بحثه عن المعنى والهوية في عالم معقد، تتناول الأديان هذا الاغتراب من منظور الروحانية والإيمان، موفرةً إجابات حول أسئلة الوجود والغاية، يواجه الفرد شعور الانفصال عن ذاته وعن المقدس، مما يدفعه إلى البحث عن روابط تعيد له التوازن الداخلي، هذه الحاجة للانتماء والارتباط بمصدر أعلى يمكن أن تعزز من تجربة الإيمان، وتساعد على تجاوز مشاعر الضياع والقلق، بالتالي، يُظهر الفكر الديني كيف يمكن للروحانية أن تكون رافداً لمعالجة الاغتراب، مما يعيد للفرد الشعور بالمعنى والغاية في حياته.

تطور مفهوم الاغتراب في العصر الحديث نتيجة لتعقيدات العلاقات الاجتماعية ونمو المجتمعات البشرية، فضلاً عن بروز الحركة الإمبريالية التي تمثل قمة تطور الرأسمالية الغربية، أدت هذه العوامل إلى ظهور عقبات أمام تحقيق الطموحات الإنسانية وكبحت حرية التفكير والتعبير، في هذا الإطار، عالجت الفلسفة الحديثة مسألة الاغتراب بشكل عميق، مع ظهور مفكرين بارزين مثل هيجل وماركس، اللذين تركت أفكارهما تأثيراً ملحوظاً في هذا السياق.

ويمثل الاغتراب تجسيداً عميقاً للحاجة والنقص الوجودي، وهو يستند إلى مفهوم الظمأ بمختلف أنواعه، لا سيما الظمأ إلى الميتافيزيقي المرتبط بالدين، في حين يعتقد فيورباخ أن الدين هو السبب الرئيسي لابتعاد الإنسان عن ذاته، إذ يقول: «إن مما يجب على الانسان أن يفعله لاسترجاع ذاته ولتحطيم تلك الحدود هو خلع ثياب الألوهية عن ذلك الاله الخارق والقضاء على ازدواجية شخصيته والعودة الى ذاته التي سلبت منه لأجل الاله» (مرتضى المطهري، الفطرة، ترجمة جعفر صادق الخليلي، ص١٢٥، مؤسسة البعثة، ط٢، بيروت ١٩٩٢)، يؤكد عبد الجبار الرفاعي أن الاغتراب الميتافيزيقي يعبر عن انفصال الإنسان عن العالم الروحي، يحبس الفرد نفسه في وجود مادي محدود، مما يؤدي إلى تشتيت كينونته وحرمانه من الاتصال بالوجود اللامحدود، هذه الفجوة تعزز شعور التمزق، وتعمق الإحساس بالاغتراب، في هذا السياق، تصبح الروحانية والتواصل مع المقدس أساسية لاستعادة الكمال الوجودي، حيث يُعتبر الارتباط بجوهر الوجود الإلهي مفتاحاً لتحقيق معنى الحياة، تعكس هذه الديناميكية كيف أن الاغتراب ليس مجرد أزمة فردية، بل هو قضية وجودية تتطلب بحثاً مستمراً عن المعنى والهدف في الوجود، لم يتم اعتبار «الاغتراب» مصطلحاً فلسفياً في الفكر الغربي إلا بفضل الفيلسوف فشته، الذي استخدم كلمة ألمانية تعبر عن خروج الذات عن الموضوع «Entaeussering»، ويُنظر إلى هيجل كرائد في دراسة هذا المفهوم، حيث قام بتحليل الظاهرة بشكل متعمق، اعتبر أن الاغتراب جزء لا يتجزأ من هيكل الحياة الكلية، وعالج المسألة من منظور تجريدي بعيد عن المعطيات المادية، مشيراً إلى أن الابتعاد عن المجتمع يؤدي إلى انفصال الذات، مما ينتج عنه اغتراب شامل، في هذه

المرحلة الثانية، يوضح هيجل أن الروح تعيش في عالمين مختلفين: الأول هو عالم الاغتراب الذاتي، حيث تشعر الروح بوجودها، والثاني هو عالم الحقيقة الاجتماعية التي تجد نفسها مغتربة عنه، يتسم هذا الطابع المزدوج للاغتراب بخصوصية هذه المرحلة، إذ تشعر الأنا بفقدانها لذاتها وانفصالها عن الدولة، التي تبدو لها كقوة متعالية وغريبة، وحتى معادية لها.

يؤكد هيجل أن هذا الاغتراب بين الدولة والأسرة، حيث تتعارض قوانين الدولة مع قوانين الأسرة، يؤدي إلى الاغتراب الذاتي (د. رمضان بسطاويسي محمد غانم، فلسفة هيجل الجمالية، ص٥٤ Kotobarabia. com, ٢٠٠٦)، كذلك، فإن شعور الأنا بأنها ليست جزءاً من الجوهر الاجتماعي يدفعها إلى الانسحاب والعمل لمصلحتها الشخصية، مما يعيق وجودها الأخلاقي في مرحلة الروح المباشرة. هذا يؤدي إلى تفكك البنية الاجتماعية، وتتميز مرحلة الروح المغترب عن ذاته بهذا الطابع المزدوج، والذي يُطلق عليه هيجل اسم «الوعي الشقي» (Unhappy Consciousness) (Jean Hyppolite: Genesis and structure, p. 7.) السؤال الذي يُطرح هنا هو: كيف يمكن التغلب على هذا الاغتراب؟ وفقًا لرؤية هيجل، يتم ذلك من خلال تخلي الفرد عن بعض جوانب ذاته لتحقيق الاندماج مع البنية الاجتماعية، مما يعيد النشاط الحيوي للعقل.

يتبين أن التخلص من أنواع الاغتراب المختلفة، مثل تلك المرتبطة بالوعي والاقتصاد والمجتمع، لا يعني التحرر من الاغتراب الميتافيزيقي، فبينما تترك هذه الأنواع آثاراً سلبية على الفرد، يبقى الاغتراب الميتافيزيقي أكثر عمقاً، إذ يمثل انفصال الإنسان عن جوهر وجوده، هذه الفجوة تؤدي إلى شعور بالقلق الوجودي، حيث يفقد الفرد ارتباطه بالله، وبالتالي يشعر بفقدان ذاته، لذا، لن يستطيع الإنسان تحقيق التحرر الحقيقي من اغترابه إلا عبر استعادة تلك الصلة مع الإله، هذه العلاقة تساعد في الوصول إلى حالة من التصالح والتسامي الداخلي، تختلف رؤى الأفراد حول الإله، فقد يكون المال أو شخصيات معينة أو معتقدات، ولكن هنا يتم التركيز على الله كحقيقة مطلقة، يسعى الإنسان دوماً للبحث عن هذه الحقيقة من أجل تحسين ذاته وتحقيق السلام الداخلي، يُعتبر الخلاص من الاغتراب الميتافيزيقي مرتبطاً بالدين، الذي يُسهل الانتقال من رؤية عدائية تجاه الإله إلى رؤية قائمة على الحب، مما يعزز التجارب الروحية الجمالية.

يبرز هذا الاغتراب كجزء من تجربة إنسانية أعمق تتعلق بالبحث عن الله، والتواصل الروحي، وفهم الوجود، وتُظهر العديد من التقاليد الدينية كيف يمكن لمشاعر الاغتراب أن تُستخدم كدافع للنمو الروحي، إذ تساعد هذه المشاعر الأفراد على الانغماس في التأمل، والتفكر، والسعي لفهم أعماق وجودهم، فعلى الرغم من الصعوبات التي قد تنتج عن هذا الاغتراب، إلا أنه يمكن أن

يؤدي أيضاً إلى استكشاف الهوية الحقيقية، والتواصل مع ما هو أكبر من الذات.

أنواع الاغتراب عند ديكارت وتأثيرها على الفرد والمجتمع:

مع بداية عصر النهضة في أوروبا، أصبح مفهوم الاغتراب أكثر وضوحاً، كما يتجلى في أفكار رينيه ديكارت الذي دعا إلى تبني رؤية جديدة ترتكز على العلم، مستخدماً شعاره الشهير «الكوجيتو» (Cogito). بالنسبة له، يمثل الاغتراب انفصال الذات عن نفسها، يظهر الاغتراب في الفلسفة الديكارتية في مجالات متعددة، منها:

١. العلم: حيث يدعو ديكارت إلى استخدام العقل والمنهج العلمي لفهم العالم.
٢. الفلسفة: حيث يعتبر أن التفكير النقدي والتشكيك هما أساس المعرفة.
٣. الذات: حيث يرى أن الوعي بالذات هو نقطة الانطلاق لفهم الوجود.

ويمكن أن تقسم إلى (حبيب الشاروني: الاغتراب في الذات، مجلة "عالم الفكر"، الكويت، ع. ١، مج. ١٠، ١٩٧٩، ص٧٠):

أ) الكوجيتو الديكارتي: حيث يتضح انفصال الأنا عن ذاتها، وهو ما يمكن اعتباره «الاغتراب الميتافيزيقي» (Aliénation métaphysique)، هو الشعار الشهير الذي أطلقه الفيلسوف رونيه ديكارت، ويعبر عن الفكرة الأساسية التي مفادها أن التفكير هو دليل الوجود «أنا أفكر، إذاً أنا موجود» (Cogito, ergo sum). من خلال هذا المبدأ، يؤسس ديكارت قاعدة فلسفية تستند إلى الشك والتفكير كوسيلة لتحقيق اليقين.

في هذا السياق، يتضح أن الكوجيتو يمثل نوعاً من الانفصال بين الأنا وذاتها (كامل محمد محمد عويضة، ديكارت رائد الفلسفة في العصر الحديث، ج٢٥، سلسلة أعلام الفلاسفة، ص٧٠، Dar Al Kotob Al Ilmiyah دار الكتب العلمية) على الرغم من أن التفكير يشير إلى الوجود، فإن هذا الوجود يُظهر أيضاً حالة من الاغتراب، فالانا لا تدرك ذاتها في وحدة كاملة، بل تتعامل مع وجودها كشيء ينبغي التفكير فيه، هنا يظهر الاغتراب الميتافيزيقي، حيث تكون الذات غير متصلة بمصدرها الوجودي الأعمق، والاغتراب الميتافيزيقي، كما يُفهم من الكوجيتو، يشير إلى الشعور بالانفصال عن الوجود الأعمق، الذي يتجاوز التفكير والوعي الفردي، بينما تعبر عملية التفكير عن الوجود، فإنها في الوقت نفسه تكشف عن بعد آخر يتعلق بالكينونة، حيث تفقد الذات ارتباطها بالمطلق أو بالأساس الوجودي.

نتيجة لهذا الاغتراب، تواجه الذات شعوراً بالقلق والضياع، إذ يتبدى لها أنها قد تكون محصورة في إطار الوعي الفردي فقط، هذا الانفصال يعكس التوتر بين الرغبة في الفهم والمعرفة، والواقع

Journal of Islamic Sciences
Vol.4 | Issue 41
ISSN: 2225-9732
December 2025
مجلة العلوم الإسلامية
المجلد 4 | العدد 41
www.isscj.edu.iq

الذي يشير إلى عدم القدرة على الوصول إلى جوهر الكينونة.

ب) الاغتراب الأنطولوجي الذي يعيد الحياة الانفعالية إلى آلية الأرواح الحيوانية: الاغتراب الأنطولوجي هو مفهوم يُستخدم لوصف حالة من الانفصال تعاني منها الذات البشرية في علاقتها مع وجودها وعالمها ـ كما أشرنا في تعريف المفهوم سالفاً ـ، يُشير هذا المفهوم إلى تراجع الحياة الانفعالية والعاطفية للفرد، حيث تُعاد الحياة الانفعالية إلى ما يُشبه آلية الأرواح الحيوانية، مما يعني أن هذه الانفعالات تصبح آلية وغير واعية.

أساسيات الاغتراب الأنطولوجي:

١. الحياة الانفعالية: في سياق الاغتراب الأنطولوجي، تتعرض الحياة الانفعالية للفرد للتهديد. بدلاً من أن تكون مشاعر الحب والفرح والحزن تعبيرات حقيقية عن وجود الفرد، تصبح هذه المشاعر آلية، تُستحضر بشكل تلقائي دون وعي أو تفاعل حقيقي مع العالم.

٢. آلية الأرواح الحيوانية: هذا المفهوم يعكس الحالة التي تصبح فيها الانفعالات خاضعة للآليات الطبيعية، مثل الحيوانات، يُنظر إلى الأرواح الحيوانية في الفلسفة الكلاسيكية كقوى حيوية تُحرّك الكائنات، ولكنها تفتقر إلى الوعي الذاتي.

عندما تُعاد الحياة الانفعالية إلى آلية الأرواح الحيوانية، يُفقد الإنسان القدرة على التفاعل بعمق مع تجاربه، مما يؤدي إلى فقدان المعنى والجوهر في الحياة. تصبح التجارب الحياتية مكررة ومعتادة، مما يؤدي إلى شعور بالفراغ، هذا الاغتراب يُعزز من مشاعر القلق والاكتئاب، حيث يشعر الفرد بأنه مُحاصر في دوامة من المشاعر غير المُلهمة وغير الواعية، وعلى المستوى الاجتماعي، يمكن أن يؤدي الاغتراب الأنطولوجي إلى ضعف الروابط الاجتماعية والعاطفية عندما يشعر الفرد بأنه غير متصل بذاته، يصبح من الصعب عليه بناء علاقات حقيقية مع الآخرين.

ج) الاغتراب الوجودي: هو مفهوم فلسفي يعبر عن حالة الانفصال التي يشعر بها الفرد تجاه وجوده وعالمه، حسب رؤية تليش إن الوجود يساوق الغربة، فوجود الإنسان ليس كم ينبغي له من جهة الجوهر فهو في اغتراب عن وجوده الحقيقي (عبد الله يحيى، الاغتراب: دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية، ص١٣٣، AIRP, ٢٠٠٥)، في سياق الفلسفة الديكارتية، يبرز هذا النوع من الاغتراب من خلال تجربة الذات التي تتجلى في إطار العبارة الشهيرة «أنا أفكر» (Cogito)، هنا، يصبح التفكير وسيلة لقياس الوجود، ولكنه أيضًا مصدر للقلق والانفصال. في قلب الفلسفة الديكارتية، نجد العبارة الشهيرة «أنا أفكر، إذاً أنا موجود» (Cogito, ergo sum) هذه العبارة تعكس فكرة أن التفكير هو ما يثبت وجود الفرد كذات مفكرة.

ومع ذلك، يعكس هذا التركيز على التفكير أيضاً حالة من الاغتراب، حيث يصبح الفعل الفكري مصدراً للقلق والانفصال عن العالم الخارجي.

جوانب الاغتراب الوجودي:

في كتابه بحث في الأنطولوجيا الظاهراتية، يحدد رائد الوجودية سارتر ثلاثة أنواع من الوجود (المصدر نفسه):

١. الوجود في ذاته.
٢. الوجود لذاته.
٣. الوجود للآخر.

الوجود في ذاته: يعبر عن وجود الأشياء والعالم المادي، حيث لا يحتاج هذا الوجود إلى وعي أو إدراك، إنه الوجود الذي يتسم بالثبات، ويعبر عن الأشياء كما هي، بدون تداخلات من التجربة الإنسانية.

الوجود لذاته: يشير إلى الوعي الذاتي والشعور بالانفصال عن العالم، هنا يظهر مفهوم الكوجيتو، الذي يعزز من إدراك الفرد لوجوده، هذا الوعي يمكن أن يكون مصدراً للقلق والاغتراب، حيث يشعر الشخص بعدم الانسجام مع محيطه.

الوجود للآخر: يصبح الآخر جزءاً حيوياً من تكوين الهوية، وفقاً لسارتر، فإن نظرة الآخر للفرد تجعله يشعر بأنه موضوع يُنظر إليه، مما يسلبه بعض إمكانياته ويعمق شعوره بالاغتراب. «إن عالمه يصبح وكأنه عالم الآخر»(المصدر نفسه)، مما يعيد تشكيل فهمه لذاته.

يؤكد سارتر أن كل التحديات والعقبات والتحديدات لحريتنا هي من صنع أنفسنا، مما يعني أن الأفراد ليسوا مجرد ضحايا للظروف، بل هم من يحددون مساراتهم. كل تجربة تمر بها الذات تُساهم في تشكيل مفهومها عن الوجود.

ما ينتج عن الاغتراب الوجودي حسب ديكارت من مشاعر:

١. انفصال الذات عن العالم: يشعر الفرد في حالة الاغتراب بأن وجوده ليس متصلاً بشكل حقيقي بالعالم، هذا الانفصال يمكن أن ينشأ من التحديات الاجتماعية أو الثقافية، أو حتى من الشكوك الوجودية التي تعصف بفهم الفرد لنفسه ولحياته.

٢. القلق والشك: في سياق الفلسفة الديكارتية، يعتبر القلق جزءاً لا يتجزأ من الوجود، كلما زاد تفكير الفرد في وجوده وأصله، زادت مخاوفه من الفناء، أو عدم المعنى، مما يعمق شعوره بالاغتراب.

المطلب الثاني: الدين ودوره في مواجهة الاغتراب

تتجلى معاناة الاغتراب كظاهرة إنسانية عميقة تنبع من عدم الانسجام بين الفرد وبيئته، سواء كان ذلك على مستوى الوجود الشخصي أو العلاقات الاجتماعية. في هذا السياق، يُعد الدين أحد العوامل الأساسية التي تلعب دوراً محورياً في تخفيف شعور الاغتراب. من خلال تقديم إطار معنوي وقيمي، يوفر الدين مساحات للتأمل الروحي والارتباط بالآخرين، مما يساعد الأفراد على إيجاد معنى لحياتهم والتواصل مع وجودهم بشكل أعمق.

تاريخياً، كان الدين وما زال مصدراً للأمل والتوجيه في أوقات الاضطراب، إذ يساهم في بناء هويات جماعية ويعزز الروابط الاجتماعية، كما يتيح الدين للأفراد فرصة للتفاعل مع أسئلة الوجود الكبرى، مما يخلق مساحات للتعبير عن المشاعر والتجارب الإنسانية.

في هذا المطلب، سنستكشف كيف يمكن للدين أن يعمل كوسيلة فعالة لمواجهة الاغتراب، من خلال تقديم العزاء، وإعادة الإحساس بالانتماء، وتعزيز الفهم العميق للوجود، وسنناقش الطرق التي يعالج بها الدين قضايا الاغتراب، بما في ذلك تعزيز قيم التواصل والتعاون، وتوفير الإرشادات الروحية التي تساعد الأفراد على إعادة توجيه مسارات حياتهم نحو معاني أعمق، مما يعكس التأثير الإيجابي للدين في تقوية الروابط الإنسانية وتخفيف الشعور بالانفصال.

١. كيف يعالج الدين قضايا الاغتراب؟:

إن النص الديني يهدف إلى تعزيز القيم الإنسانية لدى البشر، وليس العكس، ومع ذلك، شهدنا محاولات من بعض الجماعات لتغيير هذه المعادلة من خلال تأويلات مشوهة للنصوص الدينية، مما أخرجها عن أهدافها الأساسية، على مر التاريخ؛ قام العديد من هذه الجماعات بتفسير النصوص بما يتماشى مع تطلعاتهم، مما أدى إلى تشويه الغرض الحقيقي للنصوص في تعزيز القيم الأخلاقية ورفعة الإنسانية، بغض النظر عن انتماءاتهم.

في كتابه الدين والاغتراب الميتافيزيقي، يبرز الرفاعي هذه القضية محذراً من مخاطرها، يبدأ في الفصل الذي يحمل عنوان «الرحمة الإلهية مفتاح فهم القرآن»، مشيراً إلى أن «الرحمة صوت الله، ومعيار إنسانية الدين» (عبد الجبار الرفاعي، الدين والاغتراب الميتافيزيقي، ص١٧، دار التنوير، لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية قاسم فارس، سارة بنما)، لا يمكن للأديان أن تُثمر إلا عندما تكون تجربة إيمانية تجسد فيها روح المؤمن الرحمة. تعتبر الرحمة بمثابة البوصلة التي توجه أهداف الدين، وأي دين يفتقر إليها يفقد جوهر رسالته الإنسانية. هذه الرؤية تمثل الأساس الذي يستند إليه الرفاعي لتحريك المشهد الملبد بالانقسامات الناتجة عن قراءات ضيقة للجماعات

Journal of Islamic Sciences
Vol.4 | Issue 41
ISSN: 2225-9732
December 2025
مجلة العلوم الإسلامية
المجلد 4 | العدد 41
www.isscj.edu.iq

الدينية والمذهبية، من خلال هذه القراءات الأحادية، يجد كل جماعة نفسها محصورة في متاريس خطابية تعزز وجودها على حساب الآخر، متجاهلةً تأثير التجربة الفردية في استيعاب التعاليم الدينية.

في هذا السياق يتضح أن هناك حاجة ملحة لاستجلاء قراءة جديدة لـ «أنسنة الدين» تختلف عن القراءات التقليدية التي تناولت الدين كظاهرة بشرية منفصلة عن طبيعة وجود البشر. كثيراً ما تم تنصيب الإنسان كبديل لله في كل شيء، بينما يغفل البعض الآخر قيمة الإنسان ويقصي كينونته واحتياجاته الإنسانية لصالح التعاليم الدينية الصارمة، يتطلب معالجة قضايا الاغتراب تحرير المعاني الروحية والأخلاقية والجمالية للدين، التي ضاعت في ظل «دين سياسي» لا يعرف الكثير عن هذه القيم، و»دين فقهي» يختزل الدين إلى أحكام قانونية تتجاهل معانيه الأعمق، و»دين كلامي» يغرق في جدليات عقيمة تؤدي إلى إضعاف الروح وقلب الإنسان، كما يقول الرفاعي: «المعنى الروحي والأخلاقي والجمالي للدين، بعد ضياعه في دينٍ سياسيٍّ لا يعرف الكثير عن هذا المعنى ولا يسعى لامتلاكه، ودينٍ فقهيٍّ يختزل الدين في مدوّنة أحكامٍ قانونيةٍ تنسى الكثير من معانيه الروحية والأخلاقية والجمالية، ودينٍ كلاميّ يتيه فيه الدين في ظلام جداليات لا تنتهي لعلماء الكلام، ومُحاجحات عقيمة تُميت القلب وتُطفئ شعلة الروح» (المصدر السابق، ص٧٤) إلا أن ضرورة تقتضي تحقيق توازن بين الإيمان بالله والاعتراف بالطبيعة البشرية، وهذا يتطلب نقد «النزعة الاستصحابية» التي تسود دراسات القرآن الكريم، حيث ينشغل الكثيرون بالتفسيرات القديمة على حساب العودة إلى النصوص القرآنية نفسها.

تفتح الحرية الفكرية آفاقاً جديدة لاستكشاف الدين، مما يتيح للأفراد إعادة النظر في معانيهم الروحية بعيداً عن الضغوط السياسية أو الفقهية، هذا التوجه يدعو إلى دين يلامس قلوب الناس، يلبي احتياجاتهم، ويعزز من انتمائهم إلى مجتمع إنساني أكبر، حيث يُعتبر الدين وسيلة فعالة لمواجهة الاغتراب الوجودي، إذ يمنح الإنسان العزة والكرامة والاحترام، ويقدم قيماً ومبادئ تتماشى مع فطرة الإنسان، مما يعزز شعوره بالانتماء والتقدير. تكريم الإنسان هو أحد أهم المبادئ التي يؤكد عليها الدين الإسلامي، كما ورد في قوله تعالى: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ» (الاسراء: ٧٠)، حيث يُعتبر هذا التكريم أعظم قيمة تساهم في تعزيز الوجود الإنساني، ويعطي الفرد أهمية خاصة، كما يقول الإمام علي (عليه السلام): «الدين عزّ»، مما يعني أن الدين هو مصدر الرفعة والاحترام، في هذا السياق، يصبح الدين بمثابة الهوية التي تعزز من قيمة الفرد في المجتمع، مما يخفف من مشاعر الاغتراب عن الآخرين، وعلاوة على ذلك، يُشير الإمام علي إلى أن «الدين أشرف النسبين»، مما يعكس أهمية الانتماء الديني، فرغم

أن الإنسان ينتمي إلى أسرته أو قبيلته، فإن انتماءه للدين يعد أسمى من ذلك، لأنه يربط الفرد بمبادئ وقيم أوسع وأعمق.

هذا الانتماء يعزز من شعور الفرد بالاستمرارية ويؤكد له أنه جزء من شيء أكبر، مما يُعزز علاقاته الاجتماعية ويقلل من شعور العزلة والانفصال.

يُعتبر الدين عاملاً أساسياً في إزالة القلق والشك، حيث يحقق الاطمئنان النفسي ويحمي الإنسان من السقوط في دوامة الاضطراب، مما يسهم في استقراره النفسي، يتحقق هذا الاستقرار من خلال تعزيز الشعور بالأمان ونبذ الشك الذي يولد القلق والتشاؤم، خاصة في عالم اليوم الذي يعاني من حالة من القلق واليأس، هذه المشاعر السلبية تنشأ عادة نتيجة لغياب الاطمئنان والإيمان، الإيمان الحقيقي الذي يربط الإنسان بالله سبحانه وتعالى يوفر له ارتباطاً نفسياً قوياً، ويحقق الانتماء الديني الذي يُساهم في بناء هوية مستقرة، فعندما يعيش الفرد في حالة من الشك، يتعرض لهويته للاهتزاز ويجد نفسه في طريق مسدود، مما يمنعه من تحقيق التقدم في حياته، كما تؤكد الآية القرآنية: «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ» (الأنعام: ٨٢)، حيث يشير الإيمان الحقيقي إلى العدالة واحترام النفس والآخرين، أولئك الذين يصلون إلى هذا النوع من الإيمان يسعون لتحقيق الأمان في حياتهم، ويجدون الطريق أمامهم معبّداً ومفتوحاً، مما يتيح لهم مواصلة مسيرتهم بثقة واستقرار، لذا، يُعتبر الدين وسيلة فعالة لتحقيق الاطمئنان النفسي والهوية المستقرة.

خلاصة القول، يُسهم الانتماء الديني في تحقيق الأمن النفسي والخارجي للإنسان، في بعض الأحيان، قد يشعر الفرد بعدم الأمان رغم توفر الحماية الخارجية، وذلك نتيجة للقلق المستمر الذي يعيشه، لكن الإيمان وذكر الله، واطمئنان القلب يمكن أن يقوداه نحو شعور بالأمان الداخلي، وهو ما يُعتبر الأهم، كما أن الانتماء الديني يُعزز من الهداية، حيث يفتح أمام الإنسان طريقاً واضحاً، بينما يرى بعض الأشخاص السلبيون أن الطريق مسدود دائماً، يجد المؤمنون أن انتماءهم الديني يتيح لهم الوصول إلى أهدافهم.

إن الأمن والهداية يُبنيان انتماءً دينياً يحقق للفرد الاستقرار النفسي، ويعزز من هويته الحقيقية، وعندما يُسيطر الشك على الإنسان، يُمكن أن يؤدي ذلك إلى أمراض نفسية تؤثر على المجتمع، كما يظهر في الآية: «الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» (الرعد: ٢٨)، وهذا يعني وجود تواصل قوي بين الإنسان ونفسه، وبين الله والعالم، مما يولّد شعوراً بالأمان، وشعور الإنسان بالأمان يعكس قوة داخله، مما يجعله قادراً على مواجهة التحديات بصلابة وصبر، وبالتالي، يتحقق لديه أمن نفسي واجتماعي وفكري وعقائدي، مما يُسهم في إيجاد ضوء يهتدي

به في مسيرته الحياتية.

تظهر بعض النصوص الفكرية واللاهوتية أن التركيز على الله كمُعاقب ومراقب قد يطغى على جوانب الرحمة والمغفرة والمحبة الإلهية، وتلك الصورة المتشددة قد تسهم في تفاقم حالة القلق الوجودي للإنسان، بدلاً من أن تقدم له ملاذاً روحياً يُخفف من معاناته، ولكن النصوص الإسلامية تقدم صورة شاملة ومتكاملة عن الله تشمل الرحمة والعفو بجانب العدل، حيث أن صفات الرحمة والمغفرة تبرز بوضوح في القرآن الكريم وفي السيرة النبوية، مما يعزز العلاقة الحميمية بين الإنسان وربه، فالإسلام يقدم صورة الله كإله رحيم، غفور، كريم، يعفو عن زلات عباده ويقبل التوبة عنهم. هذه الصورة تحمل طمأنينة وتخفف من الشعور بالاغتراب، لأنها تؤكد على أن الله قريب من الإنسان، يعرف همومه وآلامه، وهو دائم الحضور بجانبه.

الدين يمكن أن يكون جسراً للخروج من حالة الاغتراب الوجودي، فعبر الصلاة والتضرع، يمكن للإنسان أن يستعيد الشعور بالاتصال بالوجود الإلهي، كما أن استيعاب القيم الروحية من القرآن والسنة يدعو الإنسان للتأمل في محبة الله ورحمته، مما يمنحه الإحساس بالانتماء إلى كيان أكبر يمنحه المعنى والسكينة/ إذن، قد يكون الحل للخروج من هذا الاغتراب هو في إعادة تصور العلاقة بين الإنسان والله، بحيث تكون مبنية على المحبة والرحمة بدلاً من الخوف والرهبة، كذلك يمكن العودة إلى النصوص التي تؤكد على أن الله قريب من عباده ويحبهم كقوله تعالى: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ»(الآية: ١٨٦) وأن الإنسان بمقدوره العودة إلى الله في أي وقت ليجد فيه ملاذاً من هذا الاغتراب.

٢. تأثير المعتقدات الدينية على شعور الفرد بالاغتراب:

عندما يُفهم الدين كعقيدة قائمة على الإيمان بالمطلق، يصبح الدين بمثابة ملاذ من الاغتراب الوجودي، هذا الإيمان ليس مجرد ممارسة شكلية أو خضوع لشعائر معينة، بل هو التزام طوعي نابع من قرار داخلي بالارتباط بمصدر الوجود، الإنسان الذي يعتنق الدين من هذا المنطلق يسعى للاتصال بما هو أكبر وأعمق من حياته المادية المتناهية، مما يمنحه الشعور بالأمان والاكتمال، هنا، يغدو الدين أداة لتجاوز القلق الوجودي، إذ يعيد الإنسان إلى أصله الإلهي ويؤمن له معنى وغاية تتجاوز محدودية وجوده.

أما في حالة التدين، الذي يتمحور حول الشعائر والطقوس المجردة والتي تُمارس بلا عمق إيماني حقيقي، فقد يتحول إلى وسيلة لتعميق الاغتراب، التدين الذي يركز على الشكل دون الجوهر قد يصبح مجرد تقليد اجتماعي أو ممارسة طقوسية فارغة، لا ترتبط بالحقيقة الوجودية أو

الروحية العميقة، هذا النوع من التدين قد يؤدي إلى شعور الإنسان بالانفصال عن جوهر الدين، بل ويؤدي إلى شعور بالازدواجية بين حياته الدنيوية وممارساته الدينية، ومع تداخل الدين بالشؤون السياسية والاجتماعية، قد يُستخدم كأداة لإخضاع الناس بدلاً من تحريرهم روحياً، مما يعزز شعورهم بالاغتراب.

إجابة السؤال بين «نعم» و«كلا»: بناءً على هذا التمييز، تكون الإجابة على السؤال المطروح حول علاقة الدين بالاغتراب الوجودي مزدوجة.

كلا: إذا اعتبرنا الدين عقيدة إيمانية بالمطلق، فإن الدين يصبح وسيلة لتحرير الإنسان من الاغتراب، إذ يعيده إلى أصله الإلهي ويمنحه هدفًا أسمى.

نعم: إذا اقتصر الدين على كونه شعائر وطقوس بدون عمق، فإنه قد يصبح مصدراً للاغتراب، خصوصاً إذا ما تم استغلال الدين لخدمة مصالح اجتماعية أو سياسية ضيقة.

لذا يجب فهم الدين كمنظومة إيمانية شاملة، وليس مجرد طقوس تُمارس، بهذا الفهم، يمكن للدين أن يكون مصدراً للمعنى الروحي والتواصل مع المطلق، مما يساعد الإنسان على تجاوز اغترابه الوجودي.

ويمكن تعميق النقاش حول العلاقة بين الدين والاغتراب الوجودي من خلال مناقشة الدور الذي لعبه الفهم الاجتماعي والاقتصادي للدين، كما ورد في أطروحات ماركس وإنجلز، في تعزيز الانطباع بأن الدين يساهم في ظاهرة الاغتراب. هنا يمكن تسليط الضوء على عدة محاور رئيسية:

١) الدين كأفيون الشعوب: المقولة الشهيرة التي نُسبت إلى ماركس وإنجلز حول أن «الدين أفيون الشعوب» (د. أحمد خيري العمري، ليطمئن عقلي، ص٣٤٧، عصير الكتب, ٢٠١٩) غالباً ما تم تفسيرها على أنها إدانة مطلقة للدين باعتباره أداة تستخدمها الطبقات الحاكمة لتبرير الظلم الاجتماعي والاقتصادي، الدين، وفقاً لهذا الفهم، يعمل كآلية لتخفيف آلام الطبقات المستغَلة من خلال تقديم وعود بالخلاص في الحياة الآخرة، مما يثنيهم عن المطالبة بحقوقهم في الحياة الدنيا.

٢) التشيؤ والاغتراب الاقتصادي: في السياق الماركسي، الاغتراب يرتبط بالعملية الإنتاجية، حيث ينفصل العامل عن المنتج الذي يصنعه، فيصبح العمل ذاته عبئاً وشيئاً لا يحقق العامل من خلاله تحقيقاً ذاتياً، في هذا الإطار، يصبح الدين جزءاً من هذا النظام القمعي، إذ يسهم في تبرير القهر والاستغلال عبر تخدير الطبقات العاملة من خلال إشباعها بوعد السعادة الأبدية، كما أشار غرامشي وماركس، الدين في أصله يمثل محاولة بشرية لتفسير الظواهر الطبيعية

والاجتماعية، مما يجعله أقرب إلى الفلسفة في بداياته، في هذا السياق، يمكن اعتبار الدين نوعاً من الإجابة الفلسفية على أسئلة الوجود التي كانت تُطرح في العصور الأولى، يقول ماركس: «إنك إذا حولت الدين إلى نظرية في الحقوق العامة، ستجعل الدين نفسه ضربا من الفلسفة» (كارل ماركس، افتتاحية العدد ١٧٩ من صحيفة كولونيا ضمن كتاب «حول الدين»). . لكن مع تطور الفلسفة والعلم، بدأت الفلسفات المادية، مثل الماركسية، تتباعد عن الرأي الديني في تقديم تفسيرات علمية للظواهر. الماركسية ترفض التفسير الديني للوجود لأنها ترى أن الدين هو انعكاس لمشاكل اجتماعية واقتصادية. ومن هذا المنظور، الدين ليس مصدر الاغتراب الوجودي بحد ذاته، بل هو انعكاس لحالة الاغتراب الناشئة عن التفاوت الطبقي والظلم الاجتماعي، الماركسية تسعى إلى إزالة الدين كمبرر للظلم الاجتماعي عن طريق إحداث تغيير جذري في البنية الاجتماعية والاقتصادية.

٣) الدين كمؤسسة اجتماعية: الدين ليس مجرد عقيدة أو نظام طقوسي، بل هو أيضاً مؤسسة اجتماعية لها دور كبير في تنظيم العلاقات الإنسانية، هنا يمكن أن نناقش كيف أن الدين، في دوره كمؤسسة، قد يُستخدم لأغراض سياسية واجتماعية معينة، مما قد يؤدي إلى تعزيز الاغتراب، استخدام الدين لتبرير السلطة والاستغلال السياسي أو الاقتصادي قد يحول الدين من كونه مصدراً للمعنى والارتباط الروحي إلى أداة قمعية تعزز مشاعر الانفصال والاغتراب بين الأفراد والمجتمع.

٤) العلم والدين: الدين والعلم ينتميان إلى أنساق فلسفية متباينة، في حين يقوم العلم على العقل والتجربة، يقوم الدين على التسليم والإيمان المطلق. هذا الاختلاف الأساسي بين العلم والدين يمكن أن يوضح سبب الشعور بالاغتراب لدى الأفراد الذين يعيشون في مجتمعات تُقدس الدين كمؤسسة اجتماعية وسياسية، ولكنهم في الوقت نفسه يشعرون بالانفصال عن تلك القيم بسبب تمسكهم بالتفكير العلمي أو الفلسفي النقدي. كما يشير وحيد الدين خان «إن الدين والعلم كلمتان فضفاضتان، إن الدين نظرة إلى الحياة، وهو يعني نظاما محددا يقوم على أساس تلك النظرة المعينة إلى الحياة، والعلم «Science» هو دراسة العالم المحسوس الذي يخضع أو يمكن أن يخضع لتجاربنا ومشاهداتنا. وبهذا الاعتبار فالدين والعلم كلاهما مجال لموضوعات واسعة ودائرة كل منهما تختلف كثيرا عن الآخر» (وحيد الدين خان، الدين في مواجهة العلم، ص ٦٣، ترجمة ظفر الإسلام خان، دار النفائس، بيروت، لبنان، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧ م، ط ٤). النص يلفت الانتباه إلى الفارق بين الدين بالمعنى العام والدين بالمعنى الخاص، الدين بالمعنى العام يشير إلى الاعتقاد بوجود امتداد ميتافيزيقي للوجود المادي، أي الروح التي ترتبط بالكون وتطوره، هذا المفهوم يشمل كل الأديان التي ترى أن هناك بعداً روحياً يتجاوز المادي، في

المقابل، الدين بالمعنى الخاص، مثل الإسلام، يتعلق بالعقائد والمقررات الدينية المحددة التي تميز كل دين عن غيره، من خلال رؤية الدين كظاهرة إنسانية شاملة، قد يُنظر إلى الدين على أنه محاولة بشرية لفهم ما وراء المادي، والتعامل مع الوجود بشكل يتجاوز ما هو محسوس، هذا الفهم الشامل للدين يمكن أن يكون وسيلة للتقليل من مشاعر الاغتراب الوجودي، حيث يمنح الفرد إحساساً بأن حياته متصلة بوجود أعظم ومعنى أعمق يتجاوز حياته الفردية. في حالة الدين بالمعنى الخاص، مثل الإسلام، الإيمان بالعقائد الدينية يلعب دوراً حيوياً في توجيه الفرد وتقديم إجابات على الأسئلة الوجودية، الآيات القرآنية التي تُستشهد بها تشير إلى الإيمان بالإسلام كطريق للخلاص والمعنى الحقيقي، في هذه الحالة، الدين يقدم إجابات قطعية حول طبيعة الكون والغاية من الحياة.

٣. العلاقة بين الدين والاغتراب عند بعض الفلاسفة:

عندما يُفهم الدين كعقيدة خاصة، فإن الالتزام بها قد يخفف من مشاعر الاغتراب الوجودي بشرط أن يشعر الفرد بالانتماء الكامل لتلك العقيدة، ومع ذلك، في بعض الحالات، إذا كان الفرد غير قادر على التكيف مع أو الالتزام بتلك العقيدة أو طقوسها، قد تتعزز مشاعر الاغتراب، خصوصاً إذا كانت تتعارض مع تجاربه الحياتية، التفريق بين الدين كظاهرة إنسانية عامة وبين الدين كعقيدة خاصة يساعد في فهم كيف يمكن للدين أن يكون مصدراً للارتباط الروحي والمعنى الوجودي، أو في بعض الحالات، سبباً للشعور بالاغتراب، الدين بالمعنى العام قد يوفر للفرد إجابات مرنة ومتعددة حول الوجود، في حين أن الدين بالمعنى الخاص يقدم إجابات محددة وواضحة، قد تساعد البعض على تجاوز الاغتراب أو تعززه لدى آخرين، والاغتراب الميتافيزيقي يشير إلى حالة الضياع التي يعيشها الإنسان عندما يشعر بانفصاله عن أصل وجوده الحقيقي، وهو الاتصال بالمطلق أو «المنبع اللامحدود» للوجود، هذه الحالة تختلف عن تفسيرات الفلاسفة والمفكرين مثل هيغل وفويرباخ وماركس وفرويد، الذين ربطوا الاغتراب بمفاهيم مادية أو اجتماعية، بينما يرتبط الاغتراب الميتافيزيقي بفقدان الارتباط الروحي بالمطلق.

هيغل يرى أن الاغتراب ينشأ نتيجة عدم قدرة الفرد على التوحد مع الآخرين أو ما يُعرف بـ «الضياع في الحشد.»(د. ايمن حماد، الاغتراب في الرواية العربية المعاصرة، ص٣٨، مركز الكتاب الأكاديمي) في هذه الحالة، يشعر الإنسان بالانفصال عن ذاته لأنه يفقد شخصيته الفريدة في الحشود الجماعية، حيث يصبح مجرد جزء من الكل دون أن يحتفظ بجوهره الخاص. هذا الاغتراب عن الذات يحدث عندما لا يتمكن الإنسان من التوفيق بين وجوده الفردي

والعلاقات الاجتماعية التي يعيش فيها، فالإنسان المغترب، وفقاً لهيغل، يفقد القدرة على الشعور بالانتماء إلى مجموعة أو مجتمع معين، ويظل عاجزاً عن إيجاد ذاته الحقيقية داخل هذا الحشد، وينتج عن هذا نوع من الاغتراب الذي لا يتعلق فقط بالفرد بل بعلاقته بالآخرين من حوله.

ويقدم لودفيغ فويرباخ تفسيراً مادياً للدين والاغتراب، لفيورباخ نظرة نقدية عميقة حول الدين والاغتراب، خصوصاً فيما يتعلق بالمسيحية، هدفه الأساسي كان تحليل الدين من منظور الاغتراب، وهو مفهوم استلهمه من هيغل ولكن أعاد صياغته بصورة مادية وإنسانية، بينما يرى هيغل أن الاغتراب هو عملية تتعلق بانفصال الروح عن الواقع المادي وسعيها لاستعادة وعيها بذاتها، يقدم فيورباخ تفسيراً مختلفاً، عند هيغل، الروح بعد أن تستلب في المادة تعود لتتعرف على ذاتها وتستعيد سيادتها، لكن فيورباخ يرى أن هذه العملية ليست إلا إسقاطاً وهمياً، حيث يستلب الإنسان ذاته عندما ينسب خصائصه الكمالية إلى إله خارجي. بالنسبة لفيورباخ، الدين لا يعبر عن تجلٍّ للمطلق كما يرى هيغل، بل هو تعبير عن الشعور الإنساني نفسه، إذ يقوم الإنسان بإسقاط كمالاته الخاصة على صورة إله(خشعي عبد النور، نقد الدين عند فيورباخ، ص٤).

فيورباخ يقلب المفهوم الهيجلي، حيث يرى أن المقدس (الدين) ليس مصدر الواقعي (الوجود الإنساني)، بل العكس هو الصحيح، المقدس، بالنسبة لفيورباخ، هو نتاج تصورات وأوهام الإنسان، وليس العكس، هذه النظرة تشكل تجاوزاً حقيقياً للفلسفة الهيجلية المثالية، حيث يحول فيورباخ الدين إلى عملية إسقاط إنسانية، تجعل الإنسان مغترباً عن ذاته عندما يعبد صورة الإله الذي يعكس كمالاته هو ذاته (المصدر نفسه)، هذا التحليل الفيورباخي يُظهر كيف يتحول الدين من تجلٍّ للمطلق عند هيغل إلى ظاهرة اجتماعية ونفسية في إطار تحليل فيورباخ، حيث يصبح الدين مجرد تعبير عن إحساس الإنسان بالاغتراب عن ذاته وعن واقعه.

كارل ماركس يفسر الاغتراب بشكل مادي بحت، حيث يربطه بالظروف الاقتصادية وعلاقات الإنتاج، بالنسبة لماركس، العامل مغترب عن ناتج عمله، وعن عملية الإنتاج، وعن زملائه من العمال، هذا الاغتراب الاجتماعي والاقتصادي هو نتيجة مباشرة لاستغلال النظام الرأسمالي للعمال، حيث يُسلب العامل من قيمة عمله ومن دوره الفعلي ككائن بشري.

إن الاغتراب الوجودي يتداخل مع أشكال متعددة من الاغتراب، بما في ذلك الاغتراب الرأسمالي، الذي يتسم بخصائصه الخاصة التي لا تنبع فقط من العوامل التكنولوجية أو من تقسيم العمل بحد ذاته، بل إن الخصوصية الحقيقية في الاغتراب الرأسمالي تكمن في طبيعة النظام الاجتماعي الذي يُفرض فيه تقسيم العمل، حيث لا يملك العامل حرية اختيار دوره أو نوع العمل الذي يؤديه، ولا يملك القرار فيما يتعلق بما إذا كان المنتج الذي يصنعه يجب إنتاجه

أصلاً أو ما هي مواصفاته، سواء أكان ضاراً أم نافعاً(موقع حزب الإرادة الشعبية، نظرية ماركس في الاغتراب، العدد رقم: ١١٧٦)، هذا الشعور بالعجز عن التحكم في العملية الإنتاجية أو في اتخاذ القرارات المتعلقة بالمنتج النهائي يؤدي إلى نوع من الاغتراب عن الذات وعن المجتمع، وهو ما يجعل الرأسمالية تتميز بعمق وقسوة الاغتراب الذي تفرضه على العامل، والعامل في النظام الرأسمالي يُجبر على أداء أي عمل كان ليتمكن من البقاء، حتى لو كان هذا العمل يتعارض مع قيمه أو رغباته، مما يجعله يشعر بفقدان السيطرة على حياته المهنية والشخصية. وفي حين كان العامل في النظام الإقطاعي، كالفلاح أو الحرفي، لا يزال يتمتع بقدر من الرضا الذاتي لكونه ينتج شيئاً كاملاً من البداية إلى النهاية، فإن العامل في الرأسمالية يشعر بأنه جزء صغير في آلة ضخمة لا يمكنه التحكم بها أو فهمها بالكامل. هذا الفقدان للسيطرة الذاتية يُعتبر جوهر الاغتراب في الرأسمالية (المصدر نفسه).

ماركس، في نظريته حول الاغتراب، يوضح كيف أن تبادل السلع في الرأسمالية يخلق وهماً بأن البضائع تمتلك صفات إنسانية اجتماعية، ويصبح الناس ينظرون إلى العلاقات الاجتماعية بينهم على أنها علاقات بين أشياء، وهو ما أسماه ماركس «صنمية البضائع»، هذا الوهم ينعكس في وعي الأفراد بطريقة مشوهة، حيث يظن العامل أن البضائع التي يصنعها لها قيمة تتجاوز العمل الإنساني الذي استُثمر فيها، وعلى عكس الاغتراب الإقطاعي، الذي كانت فيه العلاقات بين الأشخاص واضحة ومباشرة، فإن الرأسمالية تخفي هذه العلاقات وراء الغموض الذي تلفه السوق، حيث تصبح البضائع، وخاصة المال، هي المحرك الأساسي للعلاقات الاجتماعية، في النهاية، الاغتراب الرأسمالي لا يعبر فقط عن فقدان السيطرة على العمل، بل عن تغريب الإنسان عن ذاته وعن محيطه الاجتماعي، إنه شعور بالاغتراب الوجودي الذي يعمق الشعور بعدم الرضا وفقدان المعنى، حيث يصبح الفرد مجرد ترس في نظام أكبر لا يهتم بإنسانيته أو رغباته، والاغتراب في النظام الرأسمالي لا يقتصر على العمال فقط، بل يشمل حتى الرأسماليين أنفسهم، كما أشار ماركس في المجلد الأول من رأس المال، فإن الرأسمالي بصفته رأسمالياً ليس سوى «رأس مال مشخّص»، هذا يعني أن الرأسمالي، مثل رأس المال الذي يمثله، تسيطر عليه رغبة واحدة فقط، وهي الزيادة المستمرة في القيمة، هذه الرغبة تجعل من الرأسمالي مجرد أداة لتحقيق هذه الزيادة، والتي تمثل شكلاً من أشكال الاستلاب والاغتراب، الرأسمال نفسه، كما أوضح ماركس، «عمل ميت» لا يمكن أن يحيا إلا عندما يمتص «العمل الحي»، هذا التشبيه بمصاص الدماء يعبر عن الطبيعة الاستغلالية للرأسمالية التي تعتمد على استنزاف عمل العمال لتحقيق الربح. ولكن المشكلة الأكبر تكمن في أن هذه الرغبة الجامحة لتحقيق الأرباح لا تعرف حدوداً، فهي لا

تفرق بين الإنتاج النافع أو الضار، المهم هو تحقيق الربح بغض النظر عن التأثير على المجتمع أو البيئة، في هذا السياق، يصبح الاقتصاد الرأسمالي مدفوعاً ليس فقط بإنتاج ما هو مفيد أو ضروري للبشرية، بل بما يمكن أن يُباع ويُشترى، حتى لو كان ضاراً أو مدمراً، وبالتالي، تصبح المنتجات مجرد وسائل لتبادل القيمة، وليس لها قيمة جوهرية تتعلق بفائدتها أو ضررها. يمكن للرأسمالية أن تدفع لإنتاج سلع ضارة، مثل السموم أو الأسلحة، أو حتى فنون هابطة، طالما أن الهدف النهائي هو تغريبها أي بيعها واستهلاكها، هذا النظام لا يخلق فقط حاجات استهلاكية غير ضرورية، بل يساهم أيضاً في تكوين رغبات لا إنسانية.

تنتشر قيم مثل الجشع والأنانية، حيث يسعى الأفراد لتحقيق مصالحهم الشخصية بأي ثمن، مما ينعكس في الوعي الاجتماعي الذي يعبر عن فكرة أن الإنسان محكوم بالجشع الذي لا يمكن إشباعه، ومع ذلك، ترى النظرية الماركسية أن هذا الاغتراب ليس قدراً أبدياً، بل هو حالة مؤقتة في مسار التاريخ يمكن تجاوزها، التحرر من هذا الاغتراب ممكن من خلال تغيير النظام الاجتماعي والاقتصادي، حيث يصبح الإنسان حراً في التحكم في عمله وإنتاجه، مما يؤدي إلى تجاوز هذه الحالة وتحقيق انعتاق إنساني حقيقي.

وفي جانب آخر يقدم سيغموند فرويد تفسيراً نفسياً للاغتراب، حيث يشير فرويد في تحليله للاغتراب إلى أن جذور هذا الشعور تكمن في العلاقة بين الفرد والحضارة (د. عبد الجبار الرفاعي، الدين والاغتراب الوجودي، ٢٠٢٤) إذا كان ماركس قد ركز على الوجود الاجتماعي كعامل محدد للوعي الإنساني، فإن فرويد أكد أن هذا الوجود الاجتماعي هو الذي يحدد الشعور الداخلي، وذلك من خلال القمع الذي تفرضه الحضارة على الغرائز والرغبات اللاواعية، في إطار التحليل النفسي، «الأنا الأعلى» هو المعطى الخارجي الذي يقمع الغرائز(معاذ قنبر، الاغتراب في التّحليل النفسي (نموذج فرويد – يونغ – فروم)، ٢٠١٨-٠٨-١٨، موقع ألف لحرية الكشف في الإنسان والكتابة)، ولكنه ليس مرتبطاً بالقوى الاقتصادية كما هو الحال في التحليل الماركسي، بل يشير إلى مجموعة من القيود الثقافية والأخلاقية التي لا تسمح بحرية ظهور الرغبات الفردية، هذا القمع هو الذي يؤدي إلى حالة من التوتر والاغتراب النفسي، حيث يتم كبت الدوافع الأصلية للفرد، وعلى عكس الاستغلال الطبقي الذي وصفه ماركس، يرى فرويد أن القمع النفسي يشمل جميع الطبقات ويمتد إلى جذور التاريخ البشري.

فرويد يختلف عن روسو الذي يرى أن الإنسان خير بطبيعته، فهو يعتقد أن الدوافع الشريرة هي الأساس الذي تحكمه الحضارة. ومع تطور المجتمع، يصبح الإنسان مجبراً على كبت هذه الدوافع وتجاوزها، مما يؤدي إلى حالة دائمة من الصراع بين الرغبات المكبوتة والمتطلبات

الحضارية. ومع مرور الوقت، يؤدي هذا الكبت إلى ظهور أعراض نفسية واضطرابات، حيث تعود الدوافع الأصلية لتنشط وتؤثر على السلوك بطرق غير واعية، والحضارة، وفقاً لفرويد، هي السبب الرئيسي لهذا الشعور العميق بالاغتراب، إذ تقوم على فكرة نكران الذات وكبت الغرائز الطبيعية، الحب الجنسي، الذي يتطلب علاقة خاصة بين شريكين، يتعارض مع متطلبات الحضارة التي تفرض علاقات اجتماعية أوسع وتلغي الخصوصية الفردية. هذا التناقض بين رغبات الفرد والقوانين الاجتماعية يؤدي إلى حالة من العدوانية الداخلية التي يجب على الحضارة كبحها بشكل مستمر.

وهنا تكمن المعضلة: فالحضارة التي تحمي الفرد من الفوضى والعنف، هي نفسها التي تفرض عليه قمعاً نفسياً مستمراً، وتجبره على نكران جزء من ذاته، ومن هنا تنشأ تلك العلاقة المعقدة بين الفرد والحضارة، حيث يشعر الفرد بالامتنان للحضارة لأنها تحميه، وفي الوقت ذاته يشعر بالتمرد عليها لأنها تقمع دوافعه الطبيعية، فرويد يرى أن هذا التوتر بين الحضارة والغرائز هو السبب الرئيسي وراء صعوبة تحقيق السعادة في ظل الحضارة. فكل حضارة تعتمد على الإكراه ونكران الغرائز لتحقيق الاستقرار، وهو ما يؤدي في النهاية إلى شعور الإنسان بالاغتراب النفسي، وعدم قدرته على التوافق الكامل مع الحياة الحضارية.

المطلب الثالث: علم الكلام الجديد ومعالجة قضايا الاغتراب

تعريف علم الكلام الجديد وأهميته:

يمثل «علم الكلام الجديد» رؤية حديثة تهدف إلى تجديد الفكر الكلامي التقليدي من خلال إعادة تعريف الدين ومفاهيمه الأساسية، في عالم تتجاذبه التحديات الفكرية والثقافية، يسعى هذا العلم إلى معالجة القضايا المعاصرة بروح جديدة تتلاءم مع متطلبات العصر، مما يتيح للفكر الديني أن يتفاعل بشكل أعمق مع التساؤلات الوجودية والأخلاقية التي تواجه الأفراد والمجتمعات اليوم، ومن خلال هذا الإطار، يهدف علم الكلام الجديد إلى تقديم رؤية متوازنة تعزز من فهم الدين في سياق متغير، وتفتح آفاقاً جديدة للحوار والتفاعل بين المعتقدات المختلفة.

علم الكلام الجديد: «معناه تجديد علم الكلام في ضوء إعادة تعريف الدِّين.»(الدكتور عبد الجبار الرفاعي، مقدمة في علم الكلام الجديد، ص١٠).

أهميّة علم الكلام الجديد:

يعتبر علم الكلام الجديد تجسيداً للتفاعل الفكري المعاصر في سياق الدين الإسلامي، ويبرز أهميته في قدرته على معالجة الإشكاليات الفكرية والدينية الراهنة، في زمن الأئمة (عليهم

السلام)، شهدت الساحة الفكرية تعدداً في الاتجاهات، يعود إلى تنوع المرجعيات الفكرية التي استند إليها المفكرون، سواء كانت داخلية، مثل القرآن والسنة وتراث أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، أو خارجية مثل الفلسفة اليونانية، وعلم الكلام الجديد يهدف إلى بناء جسر بين هذه المرجعيات، مما يعزز من قدرته على تقديم أجوبة فعالة على التساؤلات المعاصرة المتعلقة بالعقيدة، من قبيل مفهوم التوحيد، وضرورة العدالة الإلهية، وموضوعات الهوية الإنسانية، كما يسعى إلى استيعاب التنوع الفكري الذي نشأ نتيجة التفاعل مع المذاهب الأخرى، من يهودية ومسيحية وغيرها، وهو ما يجعل علم الكلام الجديد أداة فعالة في الدفاع عن العقيدة الإسلامية، وتتجلى أهمية علم الكلام الجديد أيضاً في قدرته على معالجة القضايا المعاصرة مثل حقوق الإنسان، والعدالة الاجتماعية، والبحث عن المعنى في ظل التحديات الحياتية، من خلال النظر في موضوعات تقليدية مثل الإمامة وخلق القرآن، يمكن لعلم الكلام الجديد أن يقدم رؤى جديدة تتوافق مع تطلعات المجتمع المعاصر، لذا، يُعتبر علم الكلام الجديد ضرورة فكرية تتيح للباحثين والمفكرين مناقشة قضايا الدين بموضوعية وعمق، مما يساعد على بناء فهم مشترك يعزز من الهوية الإسلامية ويعكس غنى التراث الفكري الإسلامي.

كما يسعى علم الكلام الجديد إلى إرساء قواعد واضحة للفهم الديني من خلال التمييز بين العناصر الإلهية والبشرية، من خلال تحديد الفروق بين الوحي الإلهي والعقل البشري، يمكن لهذا العلم أن يكشف عن الأقنعة التي قد تتستر بها الدنيويات تحت مظلة المقدس، هذا التمييز يساعد في تحديد المجالات التي يعمل فيها المقدس، وكذلك فهم الحدود التي تنتمي إلى الحياة الدنيوية، بالتالي، يعزز علم الكلام الجديد من قدرتنا على تحليل العلاقة بين الدين والحياة بشكل أكثر دقة وعمق.

معالجة قضايا الاغتراب الوجودي:

علم الكلام يتناول قضايا الاغتراب الوجودي من منظور فلسفي عميق، حيث يسعى الدين لتقديم حلول لهذه القضايا التي تعصف بالكائن البشري، الاغتراب الوجودي ينبع من هشاشة الكينونة الإنسانية وطبيعتها الفقيرة والمحدودة، حيث يشعر الإنسان بالغربة عن ذاته وعن العالم من حوله نتيجة قلقه الوجودي والخوف من الموت بوصفه النهاية الحتمية لكل كائن، في هذا السياق، الدين يُطرح كحاجة وجودية، وليس مجرد حاجة سايكولوجية أو اجتماعية أو اقتصادية، إنه حاجة متجذرة في أعماق الوجود الإنساني، حيث يبحث الإنسان عن معنى أعمق لحياته وعن أمان مطلق يخفف من هذا القلق الذي يرافقه طوال حياته.

الإنسان بطبيعته يتوق إلى تجاوز هشاشته الوجودية بالاتصال بما هو مطلق، وهذا المطلق يُجسد في الإله أو الروح الكلية أو القوة الإلهية التي تفوق حدود العالم المادي، ففي التصورات الدينية، يكون الله هو المستغني عن كل شيء والقادر على إضفاء غنى وجودي على الكائن البشري الفقير، مما يمنح الإنسان الطمأنينة والسكينة، هذا الاتصال بالمطلق ليس مجرد تجربة روحية فردية، بل هو عملية وجودية تسمو بالكائن البشري وترتقي به إلى حالة من الكمال الوجودي الذي يعالج اغترابه ويخفف من شعوره الدائم بالعجز والضياع.

في علم الكلام، يتم تناول هذا الاغتراب من خلال المفاهيم اللاهوتية المتعلقة بالله وصفاته وعلاقته بالإنسان والعالم، تختلف تصورات الإله بين الديانات السماوية، حيث ترسم كل فرقة لاهوتية صورة مختلفة لله، إلا أن الغاية الأساسية تظل واحدة: تقديم إطار عقائدي يعين الإنسان على مواجهة قلقه الوجودي وإيجاد ملجأ معنوي في هذا الوجود المطلق الذي يمنحه الإيمان به معنى وغاية (د. عبد الجبار الرفاعي، مقدمة في علم الكلام الجديد، ص٢٠٠، مركز دراسات فلسفة الدين ـ بغداد، دار الرافدين٢٠٢٤)، يتجاوز الدين هنا كونه منظومة أخلاقية أو اجتماعية إلى كونه ضرورة وجودية للكائن البشري، يحرره من الاغتراب ويمنحه فرصة للاتصال بما هو أبدي، ليحقق بذلك نوعاً من التسامي الروحي الذي يعيد التوازن إلى كيانه القلق.

في الديانات الكبرى، تتجلى هذه الحاجة الوجودية في تصورات متعددة للآلهة والكائنات العليا، ففي الهندوسية، نجد براهما، الكائن الأعلى، الذي يتفرع إلى آلهة أخرى مثل فيشنو وشيفا، بينما في الطاوية نجد «الطاو» الذي يمثل القوة الكونية العظمى، البوذية، رغم بداياتها كتعاليم فلسفية لا تؤمن بخالق، تطورت لاحقاً لتتضمن مفاهيم مقدسة مثل «ماها براهما»، الذي يمثل الحكمة العليا، في الزرادشتية، يبرز الصراع بين أهورا مزدا، إله النور والخير، وأهريمان، إله الشر، كحل لمحاولة تفسير وجود الشر في العالم (المصدر نفسه، ص٢٠١)، هذا الثنائيات الدينية تعكس الجهد الإنساني في معالجة الأسئلة الوجودية العميقة، ومنها الاغتراب والقلق المرتبط بوجود الشر والمعاناة، ورغم اختلاف التصورات والتسميات عبر الأديان، فإن ما يجمعها هو الحاجة إلى الإيمان بوجود غني بذاته، يستمد منه الإنسان محدود الكينونة والهش كثافته الوجودية وغناه. الإنسان، الذي يعاني من اغتراب وجودي دائم، يبحث عن هذا الاتصال بالمطلق الذي يخفف من قلقه الوجودي وظمأه الأنطولوجي، هذا الإيمان، الذي يشمل الأديان جميعًا، يمثل اتصالًا وجوديًا يتجاوز حدود المادة والحياة اليومية، ليكون مصدراً للطمأنينة والمعنى. ومن المفاهيم المهمة التي يتصدى علم الكلام الجديد لمعالجتها هي:

١. الضياع الوجودي: يعبر عن حالة من الانفصال العميق بين الإنسان وذاته الأصيلة، حيث

يعيش الشخص في حالة من الحظر الداخلي تمنعه من أن يكون حراً في الإبداع والعيش حسب طبيعته الحقيقية، هذا الحظر الداخلي يقيد الإنسان ويجعله يشعر بالعجز عن مواجهة العالم وفقاً لرغباته الأصيلة، ويؤدي إلى حياة مليئة بالتعاسة والاغتراب، هذه الحالة تتعمق في مقاومة الوجود بشكل عام، حيث يشعر الشخص بأنه لا يريد أن يكون في هذا العالم، مما يؤدي إلى ما يمكن تسميته بالانتحار النفسي (الحسرة الوجودية: ماهيتها، أبعادها ومحدداتها وديناميات تشكيلها، إعداد: د. محمد السعيد عبد الجواد أبو حلاوة، مجلة الدراسات التربوية والإنسانية ـ كلية التربية ـ جامعة دمنهور، المجلد الخامس العدد (٤) - الجزء الثاني- لسنة ٢٠١٣) هذا الانتحار النفسي لا يعني بالضرورة الموت الجسدي، بل هو حالة من الانسحاب الشعوري أو اللاشعوري من الحياة، وفقدان الرغبة في مواصلتها.

المقاومة الوجودية للحياة تعبر عن افتقاد الشخص للتوازن بين غرائز الحياة والموت، إذ تتصارع الطاقة الدافعة للحياة، «إيروس»، مع الطاقة الدافعة للموت، «ثاناتوس» (المصدر نفسه) ويظهر هذا التنازع في ثلاث استراتيجيات أساسية: التجنب، التناقض، والافتقاد للقدرة على ضبط الذات.

التجنب هو تجسيد للرغبة في الهروب من مواجهة الضغوط ومصادر القلق، في حين يعبر التناقض عن انشغال الإنسان بقضايا هامشية تبعده عن القضايا الحقيقية للحياة. أما الافتقاد لضبط الذات، فهو يعكس عدم قدرة الشخص على تنظيم انفعالاته والاعتراف بمشاعره الداخلية، مما يؤدي إلى حالة من الفوضى النفسية. هذه الآليات تؤدي بالإنسان إلى فقدان كينونته الحقيقية، حيث يتوقف عن التفاعل بشكل كامل مع الحياة، ويصبح غارقاً في شعور دائم بضآلة الذات وعدم كفايتها.

يعالج علم الكلام الجديد؛ الضياع الوجودي من خلال تقديم رؤية متكاملة تربط بين الوجود الإنساني وارتباطه بالمطلق (الله) بطريقة تتجاوز الحصر المادي والعلاقات الأرضية المؤقتة. يعيد علم الكلام تشكيل الفهم الديني لمكانة الإنسان في الكون، مؤكداً أن الإنسان ليس كائناً ضائعاً في عالم عبثي، بل هو مخلوق يمتلك غاية وهدفاً.

٢. البعد الوجودي للدين: علم الكلام الجديد يربط بين حاجة الإنسان إلى الله وحالته الوجودية. فهو يفسر أن الشعور بالضياع نابع من افتقار الإنسان للمطلق، وأن الاتصال بالخالق يمنح الإنسان المعنى والطمأنينة التي يبحث عنها. فالدين هنا ليس مجرد نظام أخلاقي أو اجتماعي، بل هو استجابة لحاجة وجودية جوهرية. وتعتبر تجربة الجبران نموذجاً بارزاً في العالم الإسلامي، حيث تعكس مسعاه لإعادة النظر في الدين من منظور وجودي، يسعى الجبران إلى

التحرر من قيود الكهنوت الديني الذي اختطف جوهر الدين، كما يشير في آرائه، وجعله مجرد طقوس وأدوات للتحكم والسيطرة، ومن خلال كتاباته، يبرز الجبران كيف يجب أن يكون الدين تجربة شخصية حيوية ترتبط بعمق بوجود الإنسان ومعاناته، بدلاً من أن يُختزل في تقاليد موروثة. في هذا السياق، يمكن اعتبار تجربة الجبران تمردًا وثورة فكرية تهدف إلى كشف زيف الكهنوت الديني. عبر أعماله مثل «لصوص الله» و»جمهورية النبي»، يظهر الجبران قدرة فكرية نموذجية على تعرية الخرافات والاعتقادات التي تعيق الإنسان عن التواصل مع جوهر الدين، ويؤكد الجبران على أهمية العودة إلى الدين كفلسفة وجودية، حيث يركز على ما يسميه «ديانة القلب»، التي تمكن الفرد من الاتصال بالوجود المطلق بعيداً عن الضغوط الاجتماعية والنفسية التي تفرضها التقاليد الكهنوتية. استطاع الجبران أن يمزج بين الفكرة والمضمون، مبرزاً عمق الطرح الفكري، خاصة في ثقافتنا التي يشكل فيها الكهنوت الديني عصب الحياة الاجتماعية والفكرية والدينية، وقد قدم الجبران أفكاره بأسلوب أدبي فكري ممتع يجذب القارئ، حتى وإن كانت آراؤه محل خلاف أو معارضة، هنا تتجلى قوة الفكرة؛ بدلاً من أن تشعرك بالاستياء، قد تجعلك تتوقف لتتأمل وتفكر، خاصة إذا كنت من محبي الأفكار المؤلمة، على سبيل المثال، يبدأ الجبران في «جمهورية النبي» بقوله: «هل يمكنني القول إن أهم لحظة تراودنا هي لحظة اكتشاف الحقيقة؟ حتى لو اكتشفت أنك حمار. ليس البلية أن تعرف أنك حمار. البلية أن تعرف أنك نبي داعيتك حمار.»(عبد الرزاق جبران، جمهورية النبي، ص٧، ٢٠٠٧) تعكس هذه الكلمات محنة ثقافة مزورة تمتد لآلاف السنين، وتُظهر أن نقد هذا التراث وتجاوزه ليس بالمهمة السهلة، تشبه جمهورية النبي لدى الجبران جمهورية أفلاطون، حيث تحمل إنسانيتها معها، لأنها تستمد من أفق آخر، هو «ديانة القلب»، التي تمثل النقيض المباشر لديانة الفقه. لقد أضر دين الفقه بالإسلام، كما أن الكاهن هو من دمر المعبد. ترتكز ديانة القلب على الإنسان ووجوده، وليس على المعبد ومكانته، وهذا المعنى هو ما نبحث عنه، حيث تلتقي الوجودية بالدين كأفق إنساني. فقد ظلمت الوجودية في التاريخ كما ظلم الدين، إذ يسعى الدين إلى الانتصار للقيم الإنسانية، بينما تجعل الوجودية الإنسانية مصدر الكون الأكبر، لذا، يؤكد الجبران أن غاية النبي لم تكن تربية اللحى والحجاب والمساجد لتشير إلى الله، بل تربية قلوب تشير إلى الإنسان، الإنسان هو المشكلة، وليس الله، فالتدين الحقيقي يتجلى في كيف تصبح إنساناً في الشارع، بدلاً من أن تكون كهنوتياً في المعبد.

٣. المعنى والغاية: الضياع الوجودي مرتبط بشعور الإنسان بعدم وجود غاية أو هدف في حياته، علم الكلام الجديد يعيد توجيه هذا الشعور عبر تأكيد أن الإنسان مخلوق لغرض سامٍ

يتمثل في العبادة والتواصل مع الله، هذا يعطي الإنسان معنى يتجاوز الصراعات اليومية والقلق من الفناء والموت، في سياق البحث عن معنى وغاية الوجود، يأتي الدين كجواب عميق على الأسئلة الوجودية التي تلازم الإنسان منذ بدء الخليقة، فالدين، بصفته ظاهرة إنسانية متجذرة، يعبر عن الحاجة الفطرية للكائن البشري لفهم وجوده، ويعطيه إطاراً لمعرفة نفسه ومكانه في العالم، يطرح الدين مجموعة من الأسئلة الأساسية، مثل: ما معنى وجود الإنسان في هذا الكون؟ ما هو مصيرنا بعد الموت؟ وما هي الغاية من حياتنا؟ هذه الأسئلة ليست مجرد أفكار عابرة، بل هي موجودة في عمق شعور الإنسان ولاشعوره، وتبقى مفتوحة دون أجوبة نهائية خارج إطار الدين، تختلف الإجابات على هذه الأسئلة تبعاً لتنوع الأديان والمذاهب، لكنها جميعاً تحاول معالجة قلق الإنسان الوجودي وحاجته لفهم المعنى، يقول الدكتور عبد الجبار الرفاعي: «الدين هو الاستجابة العميقة الوحيدة لحاجة الكائن البشري لتخليد وجوده بطور وجودي آخر» (د. عبد الجبار الرفاعي، مقدمة في علم الكلام الجديد، الرافدين، ٢٠٢٤)، يدرك الدين عميقاً الحاجة الإنسانية إلى الخلود، ويستجيب لها عبر تصوراته المختلفة، إن الإيمان بخلود الروح أو بوجود حياة أخرى، يسكن روح الإنسان ويمنحه الطمأنينة، بغض النظر عن كيفية تصور ذلك في مختلف الثقافات والأديـان. ومن هنا، يصبح الدين ليس مجرد مجموعة من الطقوس أو المعتقدات، بل هو نظام شامل يسعى لإنتاج معنى روحي وأخلاقي وجمالي للحياة، وتتداخل الحياة الروحية والأخلاقية والجمالية في تجربة الإنسان، ويصبح الدين وسيلة لإيجاد المعنى الذي ينقذ الإنسان من الاغتراب والقلق الوجودي، فهو يوفر الحماية النفسية ويعزز السكينة والطمأنينة في القلب، مما يساهم في تخفيف الضغوط النفسية والدوافع العدوانية التي قد تنشأ في النفس.

لكن لا يمكن اختزال جميع مصادر المعنى في الدين فقط، فعلى الرغم من أن الفن يخلق معاني جمالية تلامس جوانب الوجود، إلا أنه لا يقدم إجابات شافية عن الأسئلة العميقة المتعلقة بالموت والخلود ومعنى الحياة، يهدف الفن إلى تخليد ذكريات الإنسان، لكنه يظل قاصراً عن تخليد وجوده بطريقة شاملة، الإنسان، بفطرته، يسعى إلى تخليد وجوده وليس مجرد ذاكرته، وهذا ما يجعل الدين ضرورة ملحة تتجاوز الفنون والآداب. إن الدين يعكس حاجة الإنسان الفطرية للمعنى، ويعطيه وسيلة للتواصل مع الوجود المطلق، مما يساعده على تجاوز مشاعر القلق والخوف الوجودي، في النهاية، يظل الدين هو الإجابة الحقيقية التي تتجاوز التعقيدات، مقدماً للإنسان رؤية شاملة تساعده في استيعاب وجوده وفهم معناه.

٤. فهم آخر للوحي: كيف يمكن أن نعيد قراءة الوحي في ضوء التطور الفكري والمعرفي للإنسان؟ بما أن علم الكلام الجديد ينشغل بمعرفة الإنسان وتطوره الوجودي كما يقول الدكتور

عبد الجبار الرفاعي: «لا يشغل الكلام الجديد كثيراً بالغوص في ماهية الله وأسرارها وعوالمها، قدر انشغاله به المعرفة الإنسان» (د. عبد الجبار الرفاعي، مقدمة في علم الكلام الجديد، ص١٢٥) يمكننا تصور أن الوحي ليس مجرد نصوص مُنزلة تشرح طبيعة الله وأوامره، بل هو أيضاً مرآة تعكس أعماق النفس البشرية وتفاعلاتها مع الحقيقة الإلهية، فعلم الكلام الجديد يرى أن الطريق إلى معرفة الله يمر عبر اكتشاف الإنسان لنفسه، إذا نظرنا إلى الوحي من هذا المنطلق، يمكننا أن نفهم أن الرسالة الإلهية لا تقتصر على تقديم معرفة مطلقة حول الإله بل تسعى إلى إيقاظ الإنسان على أسرار طبيعته المركبة والغامضة، في هذا السياق، يمكن أن يكون الوحي ليس مجرد «قول ثقيل» يختبر الإنسان من الخارج، بل عملية داخلية تكشف عن أعماق النفس البشرية وتفاعلاتها مع الوجود والغيب. بالنظر إلى الوحي من خلال هذا المنظار، يصبح الوحي رحلة استكشافية تجمع بين العوالم المرئية وغير المرئية، حيث يتم استضافة الإنسان في الغيب ليشهد ما هو إلهي، وفي نفس الوقت يبقى محافظاً على بشريته، هذه الرؤية تجعل من الوحي تجربة ذاتية ووجودية، تدعو الإنسان إلى التفكير في أسئلة الحياة والموت، والخير والشر، والوجود والمعنى، كما أن العلوم والمعارف المتطورة يمكن أن تكون وسيلة لفهم أعمق للوحي، إذ يُسهم التقدم في علم النفس، والأنثروبولوجيا، والفلسفة في الكشف عن طبقات جديدة في فهم الإنسان لنفسه، وبالتالي فهمه للوحي، الوحي إذاً ليس حالة ثابتة، بل هو عملية مستمرة تتفاعل مع تطور الإنسان ومعارفه، مما يدفعه باستمرار إلى إعادة النظر في معاني النصوص الدينية وتفسيرها بما يتلاءم مع وعيه المتزايد.

وهذا الفهم يمكن أن يكون ذا أهمية خاصة في السياقات المعاصرة التي يشعر فيها الكثيرون بالانفصال عن الأطر الدينية التقليدية، فإذا كانت الحقائق الإلهية أيضاً انعكاسات لرؤى وأحلام الإنسان، قد يصبح الفاصل بين الضعف الإنساني والحقيقة الإلهية أقل رهبة، مما يوفر إمكانية حل الاغتراب الذي ينشأ من الشعور بالغربة عن البنى الدينية أو الروحية.

٥. استعمال الدين في مجاله: الدين هو حاجة وجودية أساسية، لا نجد اكتمالاً لمعنى الحياة بدونه، فهو ليس مجرد اعتقاد أو طقوس تُمارس، بل هو ما يمنح حياة الإنسان معنى عميقاً يربطه بأبعاد الوجود الكبرى، فالإنسان يصنع حاجته للدين كما يصنع أشياءه الأخرى؛ بل أن الدين متأصل فينا كبشر، جزء من تكويننا الداخلي الذي يبحث عن إجابة للأسئلة الوجودية: من أين أتينا؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟ وما الهدف من حياتنا؟ يقول الدكتور عبد الجبار الرفاعي: «يشغلني حضور الدين بوصفه حاجة وجودية للإنسان، لا يكتمل تكوين معنى للحياة من دونها.» (المصدر السابق، ص٢٠١) ما يصنعه الإنسان، هو أنماط تدينه، الطرق التي يعبر بها عن تلك الحاجة

العميقة للدين، تتغير هذه الأنماط وفقاً للزمان والمكان، يقول الدكتور أنتوني والاس: «أن الدين يجب أن يختلف من مجتمع لآخر ومن مجموعة إلى أخرى داخل المجتمع، وذلك اعتماداً على القيم اللازمة لاندماج المجتمع والبقاء على قيد الحياة» (د. أنتوني والاس، ص٦٥، ترجمة: عبد الله إسلام، فاطمة قرطمة Arkan for Studies, Research and Publishing, ٢٠٢٠)، فهذه الأنماط

٦. تتأثر بالثقافات المختلفة والبيئات الاجتماعية والسياسية التي يعيش فيها الناس، إلا أن الدين في مضمونه ثابت، لكن التدين ـ أي كيفية ممارسة هذا الدين وفهمه ـ هو ما يخضع للتغيير والتكيف مع ظروف الحياة، والدين ليس مجرد تجربة فردية، بل هو عامل أساسي في بناء المجتمعات، يُسهم في تحقيق التضامن المجتمعي، ويرسخ قيم الحق والعدل والكرامة والسلام، عندما ينغرس الدين بعمق في حياة المجتمع، يصبح قوة تدفع نحو العدل وتطبيق القوانين التي تحمي كرامة الإنسان. إنه ليس فقط مصدر أمان للفرد، بل هو أيضاً دعامة لبنية المجتمع، يساعد في حماية العلاقات الإنسانية والعائلية، ويُعدّ مصدراً للإلهام الأخلاقي الذي نحتاجه في حياتنا اليومية.

ما يلفت الانتباه هو أن الدين لا ينتهي بولادة مؤسسه أو نزول تعاليمه، بل يستمر في التخلق والنمو عبر الزمن. الدين في حالة دائمة من الصيرورة، يتكيف مع احتياجات البشر المتغيرة، ويأخذ أشكالًا جديدة تناسب تحديات العصر، هذه القدرة على التكيف تجعله مصدراً مستمراً للإلهام في الحياة، لكن في هذا النمو والتطور، لا يخلو الدين من تأثيرات السلطة والمعرفة، هناك دائماً علاقة عضوية بين السلطة والمعرفة؛ السلطة تنتج معرفة من جنسها، والمعرفة بدورها تنتج سلطة، وهذا ما يجعلنا نرى تمثلات الدين تتكيف مع سياقات الحياة المختلفة، سواء كان ذلك في الحياة السياسية أو الثقافية أو الاجتماعية، من خلال هذا الفهم، يمكن أن نرى أن الدين ليس مجرد نظام اعتقادي ثابت، بل هو تجربة حية تنبض بالمعنى، تنمو وتتغير مع الإنسان، حاجتنا للدين ليست حاجة مفروضة من الخارج، بل هي حاجة جوهرية داخلية، تعكس بحثنا المستمر عن المعنى في عالم مليء بالتحديات والتناقضات، الدين، في نهاية المطاف، هو ما يعطينا الأمل والأمان، ويوفر لنا إجابات حين تتلاشى جميع الإجابات الأخرى.

الخاتمة

من خلال هذا البحث، توصلتُ إلى فهم أعمق لمفهوم الاغتراب الوجودي وتأثيره على الفرد والمجتمع، وكيف يمكن للدين أن يكون عاملاً محورياً في مواجهة هذا الشعور العميق بالانفصال عن الذات والعالم. اكتشفتُ أن الاغتراب ليس مجرد حالة نفسية مؤقتة، بل هو تحدٍّ وجودي يتطلب منا التأمل العميق في علاقتنا بأنفسنا وبالوجود، وظهر بوضوح أن الدين، بتقديمه معنى شاملاً للحياة، يلعب دوراً أساسياً في مساعدتنا على مواجهة التساؤلات الوجودية المعقدة التي قد تثير مشاعر الاغتراب، كما أنني أدركت أهمية علم الكلام الجديد في إعادة التفكير في هذه القضايا الوجودية، فهو يقدم قراءة حديثة ومتجددة للدين ومفاهيمه، مما يجعله أكثر ملاءمة للتعامل مع تحديات الإنسان المعاصر، علم الكلام الجديد يركز بشكل كبير على الإنسان، ويجعل فهمنا لذواتنا البشرية هو المفتاح لفهم علاقتنا بالله والوجود.

أصبح من الواضح لي أن الحاجة إلى إعادة التفكير في الدين وعلم الكلام أمرٌ ضروري في عصرنا الحالي، حيث نواجه تحديات جديدة تتعلق بالهوية والاغتراب، من المهم أن يواصل الفكر الديني تطوره ليتناسب مع هذه التحديات، ويبقى قادراً على تقديم إجابات حقيقية لأسئلة الإنسان الوجودية. في النهاية، أرى أن الدين وعلم الكلام الجديد يقدمان لي ولغيري إطاراً قوياً يساعدنا على استعادة معنى حياتنا والتغلب على مشاعر الاغتراب، مما يساهم في تحقيق التوازن النفسي والاجتماعي الضروريين لحياة أكثر استقراراً ومعنى.

أهم النتائج:

١. الدين كعلاج للاغتراب الوجودي: تبين من خلال البحث أن الدين يوفر إجابات شاملة للأسئلة الوجودية العميقة التي تثير مشاعر الاغتراب، من خلال منحه معنى للحياة وتوجيهه الأفراد نحو الغايات الكبرى التي تتجاوز القضايا اليومية. الدين يلعب دوراً حيوياً في التخفيف من شعور الإنسان بالانفصال عن ذاته والعالم.

٢. تأثير المعتقدات الدينية على الفرد: أظهر البحث أن المعتقدات الدينية تساهم في تعزيز شعور الأفراد بالانتماء والاتصال بالعالم، مما يقلل من الاغتراب، والمعتقدات المتعلقة بالمعنى والغائية تحفز الشعور بالأمل والاتزان النفسي والاجتماعي.

٣. تجديد الفكر الديني من خلال علم الكلام الجديد: أبرز البحث أهمية علم الكلام

الجديد في إعادة قراءة النصوص الدينية وفهمها في سياقات معاصرة، مما يساعد في مواجهة تحديات الاغتراب. علم الكلام الجديد يركز على الإنسان بوصفه محوراً رئيسياً، ويُعيد النظر في المفاهيم القديمة بما يتناسب مع الفكر الحديث.

٤. الحاجة إلى تطور الفكر الديني: أكد البحث على ضرورة استمرار تطور الفكر الديني وتحديثه ليواكب التغيرات الاجتماعية والثقافية والوجودية التي يعيشها الإنسان المعاصر، هذا التطور يساعد على جعل الدين أكثر ارتباطاً بواقع الناس وتحدياتهم اليومية.

٥. الإنسان محوراً للفهم الديني: خلص البحث إلى أن فهم الإنسان وطبيعته المركبة هو المدخل الأساسي لفهم الدين، وأن العلاقة بين الإنسان والدين تتطلب إعادة قراءة تتوافق مع الاكتشافات الحديثة في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

المراجع

١. القُرآن الكريم.

٢. الدكتور عبد الجبار الرفاعي، مقدمة في علم الكلام الجديد، مركز دراسات فلسفة الدين بغداد، دار النشر الرافدين.

٣. الدكتور عبد الجبار الرفاعي، الدين والظمأ الأنطولوجي، مؤسسة هنداوي.

٤. مرتضى المطهري، الفطرة، ترجمة جعفر صادق الخليلي، مؤسسة البعثة، ط٢، بيروت ١٩٩٢.

٥. د. رمضان بسطاويسي محمد غانم، فلسفة هيجل الجمالية، ص٥٤. Kotobarabia.com, ٢٠٠٦.

6. Jean Hyppolite: Genesis and structure

٧. حبيب الشاروني: الاغتراب في الذات، مجلة "عالم الفكر"، الكويت، ع. ١، مج. ١٠، ١٩٧٩.

٨. كامل محمد محمد عويضة، ديكارت رائد الفلسفة في العصر الحديث، ج٢٥، سلسلة أعلام الفلاسفة، Dar Al Kotob Al Ilmiyah دار الكتب العلمية.

٩. عبد الله يحيى، الاغتراب: دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية، ص١٣٣، AIRP, ٢٠٠٥.

١٠. الدكتور عبد الجبار الرفاعي، الدين والاغتراب الميتافيزيقي، دار التنوير، لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية قاسم فارس، سارة بنما.

١١. د. أحمد خيري العمري، ليطمئن عقلي، عصير الكتب, ٢٠١٩.

١٢. كارل ماركس، افتتاحية العدد ١٧٩ من صحيفة كولونيا ضمن كتاب «حول الدين».

١٣. وحيد الدين خان، الدين في مواجهة العلم، ترجمة ظفر الإسلام خان، دار النفائس، بيروت، لبنان، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧ م، ط ٤.

١٤. د. ايمن حماد، الاغتراب في الرواية العربية المعاصرة، مركز الكتاب الأكاديمي.

١٥. خشعي عبد النور، نقد الدين عند فيورباخ.

١٦. الحسرة الوجودية: ماهيتها، أبعادها ومحدداتها وديناميات تشكيلها، إعداد: د. محمد السعيد عبد الجواد أبو حلاوة، مجلة الدراسات التربوية والإنسانية ـ كلية التربية ـ جامعة دمنهور،

المجلد الخامس العدد (٤)- الجزء الثانى- لسنة ٢٠١٣.

١٧. عبد الرزاق جبران، جمهورية النبي، ٢٠٠٧.

١٨. د. أنتوني والاس، ترجمة: عبد الله إسلام، فاطمة قرطمة, Arkan for Studies, Research and Publishing, 2020.

المواقع:

١٩. موقع حزب الإرادة الشعبية، نظرية ماركس في الاغتراب، العدد رقم: ١١٧٦.

٢٠. معاذ قنبر، الاغتراب في التّحليل النفسي (نموذج فرويد – يونغ – فروم)، ٢٠١٨-٠٨-١٨، موقع ألف لحرية الكشف في الإنسان والكتابة.